طبيعة الحبشة الجغرافية

وصلتها بمنعتها الحربية[1]

يرى السنيور موسوليني ان ايطاليا مسوقة بالحاجة القاسرة ، اقتصادية وشعبية ، الى بسط سيطرتها السياسية على الحبشة . الاّ انّ ما عرف عن الاحباش وتمسكهم باستقلالهم ، يجعل كل محاولة للتوسع الايطالي متعذرة الاّ بعد نزاع عسكري واسع النطاق مع جيوش الامبراطور هيلاسلاسي . وقد كانت اقوى الوسائل التي اعتمد عليها الاحباش في الدفاع عن بلادهم طبيعتها الجغرافية والطبوغرافية ولا يخفى ان وسائل الحرب الحديثة قد اضعفت من شأن عوامل الاقليم والطبوغرافيا في الخطط العسكرية ، في الاحوال العادية . ولكننا كلما تعمقنا في درس النهج الذي يحتمل ان تنهجه الحملة الايطالية في الحبشة مالنا ما للعوامل الطبيعية من الشأن في مسيرها ومصيرها

ليس لايطاليا الاّ قاعدتان تستطيع ان ترتكز عليهما في حملتها على الحبشة وهما مستعمرتاها الافريقيتان اي الاريترية والصومال الايطالي . فالاولى على ساحل البحر الاحمر الى الشمال من الحبشة والثانية على ساحل المحيط الهندي الى الجنوب وعلى مقربة من خط الاستواء

ففي الاريتريا حشد موسوليني الجانب الاكبر من الحملة الايطالية الافريقية ومنها شرع في محاولته اكتساح الحبشة . ليس لمستعمرة الاريترية في حد ذاتها اي قيمة حقيقية من الوجهة الجغرافية . اما من الناحية الاقتصادية فكانتها قائمة على انها تسيطر على منافذ التجارة من شمال الحبشة وهي تجارة مقدارها يسير على كل حال . ولكن مكانتها من الناحية العسكرية كبيرة لانها تجهّز الايطاليين بقاعدة للاعمال العسكرية معتدلة الجوّ ، وترسّخ اقدامهم في شمال النجد الحبشي . فاسمرا عاصمة الاريترية بلدة متوسطة على ارتفاع سبعة آلاف قدم ومتوسط حرارة جوها السنوي ستون درجة بمقياس فارنهيت (اي ١٥ درجة مئوية) ولذلك يسهل على الاوربيين ان يقطنوها . الاّ ان ما يصدق على اسمرا لا يصدق على مرقع مصوّع ، حيث تشتدّ الحرارة في معظم شهور السنة . واكبر الصعاب التي يتعرّض لها سكان الاريترية قلة الماء فيها الناشئة عن قصر فصل الامطار

اما بلاد الصومال الايطالي في الجنوب فتختلف كل الاختلاف عن مستعمرة الاريتريا . فهي جزء من تلك المناطق الشبيهة بالصحراوية التي تحدق بالنجد الحبشي من ناحية الشرق ومنها بلاد الصومال البريطاني والصومال الفرنسي وسواحل الاريترية وولايات الحبشة الشرقية الشمالية والشرقية الجنوبية . ففي الصومال الايطالي ليست تجد جبالاً ذات شأن . فانخفاضها وقربها من خط الاستواء

(١) ملخص فصل للسنيور سكتا Scaetta صاحب المباحث الطبية في شمال افريقية وقلبها وغربها وهو الآن استاذ علم الاقليم البيولوجي Bioclimatology في جامعة بروكسل في بلاد البلجيك . وقد نشر في عدد اكتوبر من مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs الزمبة الاميركية

يجعلان سكناه متعذرة على البيض . وسكانها الاصليون يعيشون على الزراعة يعالجونها بأساليب ووسائل بدائية، ورعي القطعان . واصلح مقاطعاتها الزراعة وادياً نهر جوبا ونهر وابي شبيلي . فهذان النهران يأتيان من النجود الداخلية عاة الري وتربة خصبة تسمد الارض التي ترسب فيها . فالجيش المتقدم من مقادشيو عليه ان يسلك هذين الواديين او ان يخترق منطقة جافة طولها نحو ٣٠٠ ميل قبل ان يصل الى آبار وال وال وغرلوغربي حيث تظهر على سطح الارض المياه المتجلّبة تحت الارض من النجود الشمالية . فهذه الآبار من الناحية الستراتيجية لها مكانة عظيمة جداً

٥٥٥

اما النجد الحبشي ، وهو بوجه عام ما كان يعلو اكثر من خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر، فهو الجانب الوحيد من بلاد الحبشة الذي يصلح لاستعمار البيض . هنا يقطن الاحباش المسيحيون المتكلمون لغة الاحرية ، المسيطرون على القبائل القاطنة في الولايات التي تحيط بهذا النجد . والنجد نتسة مكوّن من صخور رسوبية مرتفعة تعلوها طبقة صخرية من اصل بركاني . وثمة جبال كثيرة يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم ، وبوجه خاص في الشمال ، وعدة جبال يبلغ ارتفاعها خمسة عشر الف قدم . وال الشرق ، بين النجد والبحر منخفض صحراوي من الارض يعرف بمنطقة الدناكل ، وهو منطقة جافة وبيئة بعض اجزائها اوطأ من سطح البحر ، ولم يفلح في اختراقها حتى الآن الا فريقان من الرحالين الاوربيين احدهما بقيادة لودفيكو نمبت Nesbitt وقد دعاه عتر الطليقة الجهنمية » . وتضيق هذه المنطقة الى الجنوب فتصبح كأنها خندق يفصل النجد الحبشي عن النجد الصومالي . فالطرف الجنوبي من هذا المنخفض اقل مناعة على الغزاة من متبسطه الشمالي وقد سلكته غزاة « الجلا » مراراً من القرن السادس عشر حين ارادت طوائف منهم ان تغزو الحبشة . يضاف الى هذا ان النجد الصومالي لا ينخفض انخفاضاً فجائياً في هذه الجهة . فالعقبات الكبرى التي قد تعترض تقدم الايطاليين من هذه الناحية ، هي طول المسافة وقلة الماء ، اكثر منها طبيعة البلاد الطوغرافية

اما في الشمال فعلى كل قائد يتوخى ان يغزو الحبشة من ناحية الاريتريا ان يحسب حساب الخنادق الطبيعية التي خدّدها نهر التاكاز وروافده في النجد الحبشي . ولما كانت هذه الروافد تعترض في اتجاهها خط التقدم العسكري ، ولما كان عمقها يزيد احياناً على نصف ميل ، فانها ولا شك تعرقل اي تحفل عسكري في الحبشة وراء حدود وبوجه خاص لعدم وجود جسور او طرق لعبور هذه الخنادق . فاذا شاء القائد ان يجتنب هذه الصعاب فعليه ان يوجه جيشه من شرق هذه المنطقة عن طريق ماكال وعجدلا . وهذه هي الطريق التي سلكتها حملة الجنرال نابيير Napier الانكليزي ضد الامبراطور ثيودوروس سنة ١٨٦٨

وتقسم الاحباش بلادهم ثلاث مناطق اقليمية

اولاها يسمونها «دبجا» وهي تشتمل على جميع البلدان التي تعلو اكثر من ثمانية آلاف قدم من سطح البحر . ويدخل في نطاقها جانب كبير من شمال النجد الحبشي والحاشية الشمالية من النجد الصومالي . هنا نجد قطعان البقر والغنم مراعي على مدار السنة . ولكن بعض الثقات يرتابون في هل يصلح اقليم هذه المنطقة لسكنى البيض من جنوب اوربا . ويختلف متوسط الحرارة السنوية من ٤٠ الى ٦٠ ميزان فارنهيت (٤ ٪ — ١٥ ٪) بميزان سنتغراد اي ان جوّها بارد

والثانية ترتفع من ٤٨٠٠ قدم فوق سطح البحر الى ٨٠٠٠ قدم . وتعرف عندهم باسم «وينادينجا» وفيها يختلف متوسط الحرارة السنوية من ١٥ ٪ الى ٢٠ درجة مئوية (سنتغراد) . هذه المنطقة المعتدلة تشتمل على جانب كبير من قلب النجد الحبشي والمناطق العليا من حوضي نهر جوبا ونهر وبي شبيلي . وفي جوانبها توجد آثار الحراج الاستوائية التي ابقي عليها بعد ان اغتالت النار والقطع معظمها . هنا تكثر الحبوب والعنب والثمار الاهيمونية ويقول الاحباش انهُ في الامكان جني ثلاثة محاصيل في السنة . واذاً فهذه البقعة اصلح ما تكون لسكنى الاوربيين

اما المنطقة الثالثة فيختلف ارتفاعها من ٢٨٠٠ قدم فوق سطح البحر الى ٤٨٠٠ قدم وتعرف عندهم باسم « كولا » . هنا يختلف متوسط الحرارة السنوية من ٢٠ درجة مئوية الى ٢٥ . والاحباش يرون هذه المنطقة شديدة الخصب فاذا دبرت لها اساليب الري الحديث زادت خصباً . فثمة صنف جيد من البن يزرع في اعاليها ، والقطن وقصب السكر يزرعان في مراطيها . وهي اقل صلاحاً لسكنى الاوربيين من المنطقة الثانية ولكنها في الوقت نفسه اصلح لتجهيز ايطاليا ببعض المواد التي تحتاج اليها اذا احسن تدبيرها وبوجه خاص القطن

اما المناطق التي اوطأ من المناطق الثلاث المتقدمة فشديدة الحرارة ومتوسط الحرارة السنوية هناك ٣٠ درجة مئوية . وقطنها في الغالب قبائل رحّل مقلقة للامن ولا تهمُّ الاوربيين

***

ثم هناك اعتبار عسكري كبير الشأن . فالنجد الحبشي يرتفع احياناً الى قنن ذاهبة في الجو ، وينخفض احياناً اخرى انخفاضاً جائبًا الى اودية ضيقة ذاهبة في جوف الارض كما قدمنا . وليس بين المرتفعات والمنخفضات سهولٌ ما او انّ السهول قليلة وضيقة . فالنجد مضرّس تضريساً شديداً ، الاّ في منطقة بحيرة تانا ومنطقة البحيرات الى الجنوب من اديس ابابا . فلستَ تجد في النجد الحبشي اماكن يمكن ان تتخذ قواعد كبيرة لمناورات جيوش جرّارة

ومن الحقائق التي يجب على قيادة الجيش الايطالي ان تحسب لها حساباً في خططها نوع من التربة الحمراء توجد عادة في البلدان الاستوائية . وهي كثيرة في الحبشة في الاماكن التي يقلُّ ارتفاعها عن

٦٠٠٠ قدم . في فصل الجفاف تكون هذه التربة جافة صلبة في الظاهر ولكن اقل ضغط تمرّ عليها يحوّلها دقيقاً دقيقاً . فاذا سقط رذاذ تحوّلت الى معجون ولق كأنه صابون ، فيعسر السير فيها حتى مشياً . وفي هذه الحالة يتعذر على اية مركبة ان تعتمد في طريق شديدة الانحدار . وان قافلة من الدبابات او سيارات النقل اذا فوجئت وهي في طريقها بهطول مطر غزير ، اضطرّ ان تلبث في مكانها حتى ينحبس المطر وتشرق الشمس وتجفف التربة . وهذا يفسّر تعذر القيام باي اعمال حربية في الحبشة قبل سبتمبر وهو الشهر الذي ينتهي فيه فصل الامطار

مما تقدم من وصف الحبشة الجغرافي والطوغرافي يستطيع القارىء ان يتصوّر الخطة العسكرية التي يجب ان يجري عليها من ينوي غزو الحبشة . فالقوة الزاحفة من سواحل المحيط الهندي ، عليها بعد ان تجتاز سواحل الصومال الايطالي واوغادن ، ان تجعل هدفها الاول احتلال الجانب الشمالي من النجد الصومالي وهو يقع في ولاية هرر . فاذا اتخذت وال وال وغرلوغوبي قاعدتين لها استطاعت ان تسلك وادي جوبا ووادي شبلي وهي كما تقدم ، تؤاتي ذلك من ناحيتي الجو والماء

فاذا فازت باحتلال هذه المنطقة مكّنها ذلك من السيطرة على فاصل النهرين الرئيسيين في الصومال الايطالي ، وعلى ذلك الجانب من نهر هواش الذي يسير في وادي الرفت ، وهو الوادي الذي تقطعه سكة الحديد من اديس ابابا الى جيبوتي . حتى اذا لم تحتلّ القوة الغازية سكة الحديد ، فانها تستطيع ان تسيطر عليها باحتلالها للجانب الشمالي من النجد الصومالي

***

اما الهدف الذي تتجه اليه القوة الزاحفة من الاريتريا فيجب ان يكون احتلال الجبال الى الشمال والشرق من بحيرة تانا . لانه ما دامت هذه البلاد الوعرة في ايدي العصابات الحبشية فلا تجرؤ اية قوة على التغلغل الى قلب النجد الحبشي لئلاّ تتعرّض مؤخرتها لهجوم العصابات . وقد يكون من العوامل العسكرية في هذه الناحية ، ان انهار الاتبرة والتكاز والنيل الازرق تنبع في هذه المنطقة ، ومياهها — وخاصة مياه النيل الازرق النابع من بحيرة تانا — متصلة اوثق اتصال بحياة مصر . فالراجح ان بريطانيا تحتفظ بسياستها التقليدية في صدد هذه المنطقة وهي منطوية في عدة معاهدات وتصريحات رسمية وقاعدتها عدم التسليم لاية دولة اوربية بأقلاق السلام فيها

ولابدّ للجيش الايطالي الزاحف من شق الطرق وبناء الجسور والاّ تعذّر عليه ان يجني فائدة ما من استعمال الدبابات والسيارات المسلّحة . الاّ ان هناك صعوبة هندسية كبيرة ، ولكن التغلّب عليها غير مستحيل ، وهي وجوب نقل المواد اللازمة في بناء الجسور مسافات طويلة من ايطاليا الى مصوع ومن مصوع الى اسمرا الى المناطق التي يحتلّها الجيش الزاحف . يضاف الى هذا ان الجسور نفسها ، والطرق الجبلية ، والمستودعات ، معرّضة دائماً للسيول تجرفها في تدفقها

وليس ثمة ما يمنع . فعلى المهندسين العسكريين يقع معظم التبعة في نجاح الحملة أو خذلانها

ولما كانت حاملات الجيشة الزراعية لا تكاد تكفي الاحباش انفسهم ، وما يحتاجون اليه يسير بالقياس الى ما يحتاج اليه جيش اوربي ، فلا يعقل ان تستطيع القيادة الايطالية الاعتماد عليها في جانب من مؤونة الجيش . ولذلك سوف تضطر الى استيراد كل ما يحتاج اليه الجيش من الخارج وهو عمل شاق وكبير النفقة

***

يتضح مما تقدم ان تقدم الجيوش الايطالية في زحفها على الحبشة يتوقف على شق الطرق الصالحة للعربات الميكانيكية بين القواعد الحربية المتقدمة وقواعد التخيرة والمستودعات على الساحل . لذلك يكون كل تقدم سريع من ناحية الاريتريا محفوفاً بالخطر . ومع ما جهزت به الحملة الايطالية الافريقية من وسائل النقل الميكانيكية ، فان فتح اي بلاد يقتضي احتلال المراكز العسكرية الهامة وتنظيم ادارتها وابقاء حاميات كبيرة فيها . فاللبث في كل من هذه المراكز قبل التقدم الى غيرها يفسح المجال لمهندسين فيشقون الطرق ويرصفونها . ولا يستطيع الجيش الايطالي ان يجني الفائدة كل الفائدة من تفوقه في الاسلحة الميكانيكية الا على هذا النمط

ولا ننسى أن أحد العناصر التي تسهل زحف الجيش الايطالي او تؤخره ، مدى المقاومة التي يبديها الاحباش وشعبها . والاحباش يقوفون خصومهم في ملاءمتهم لاحوال البلاد . ففي وسعهم ان يجتازوا مسافات شاسعة مشياً يعجز عنها البيض الاوروبيون . فهم يستطيعون ان يقطعوا مسافة تختلف من ٣٥ ميلاً الى ٤٠ ميلاً في اليوم ويمضوا في ذلك بضعة ايام متوالية . ويستعملوا صنفاً خاصاً من البغل الاهلي يتصف بخفة الحركة والسير والاكتفاء بيسير من الغذاء . واستعمالهُ يمكنهم من نقل المدافع الرشاشة والمدافع الجبلية الى قمم منيعة فيعرقلون تقدم العدو باستعمالها من اعاليها

ان اساليب الحرب الميكانيكية ، ورجال المشاة المتنقلة باعتمادها الحديثة ، تفقد اكثر جانب من تأثيرها في مثل هذه الاحوال . اي ان القوات الغازية يجب ان تستعمل جماعات كبيرة من رجالها للتغلب على عصابات اقل منها عدداً واضعف عدة ولكنها متصفة بخفة الحركة ومعرفة البلاد . ولما كانت طبيعة البلاد الطبوغرافية ما هي ، فالراجح ان الاحباش لا يعمدون الى التجشع بل على الضد من ذلك يجدر بهم ان يعتمدوا على التفرق والتخفي والتسلل . فاذا جروا على هذه الخطة واستطاعوا ان يستدرجوا خصومهم الى الاودية والخنادق الطبيعية وهناك يزعزعون شملهم . ولا ريب في انهم سيحاولون في الوقت نفسه ان يعرقلوا الصلة بين فرق العدو المتقدمة وقواعده الاساسية

ان سرّ نجاح الاحباش في مقدرة الامبراطور على الاحتفاظ بحرية حركة جيوشه وسرعتها . فاذا استطاع ذلك ، اضطر الايطاليون أن يهاجموا معاقل منيعة يطيمتها . وهذا من شأنه ان

يقلّ من سورة جيش غير متعوّد الاجهاد البدني في بلاد مرتفعة . يقابل هذا انهُ اذا اتيح للعدو الزاحف ان يحتلّ بعض هذه المناطق المنيعة، فتزداد الاحباش يضطرون حينئذٍ ان يغامروا بطوائف كبيرة من جيوشهم لاسترجاعها ، وفي هذه الحالة لا تجدي شجاعة الاحباش كثيراً ضدّ المدافع الضخمة والرشاشة وقنابل الغاز

ولا ينتظر ان تجني فائدة كبيرة من اسراب الطائرات الايطالية ؛ لقلة الاهداف التي تتجه اليها. فلا يحتمل ان تهاجم جموعاً كبيرة من جيوش الاحباش لان المتوقع ان هذه الجموع لا تحتشد الاّ ليلاً . وليس هناك مدن كبيرة او مراكز آهلة تصلح ان تكون اغراضاً تتجه اليها الطائرات وتلقي عليها قنابلها . والراجح ان جلّ الفائدة التي يمكن ان تجنى من اسراب الطائرات الايطالية فائدة معنوية ؛ اذ قد يكون مشهد هذه الغارات الطائرة وهي تطلق مدافعها الرشاشة مما يبعث الهلع في الجيش والشعب على السواء

نعم للطائرات فائدة كبيرة في استطلاع حركات العدو ، وقد تكون عوناً في حركة المشاة ، ولكن مدى طيرانها محدود بما يمهد لها من المطارات . وقد تجد القيادة الايطالية ان جميع هذه العوامل تقضي بالاقلال من الاعتماد على الطائرات في ادراك اغراضها . ولكن يجب ان نذكر انهُ لم تنشب حرب كبيرة بعد اتقان الطائرات الحديثة بين احوالها واحوال الحرب الايطالية الحبشية شبه ما ، ولذلك فالحكم في هذا الصدد مرهون باختبار سلاح الطيران الايطالي في الحبشة

***

ثم ان موسوليني يجب ان يحسب حساباً لطول فصل الجفاف في الحبشة لتحقيق اغراضه الاولية والنهائية. فهل ادراك الغرض النهائي وهو اخضاع الحبشة قاطبة ، مستطاع في فصل واحد؟

لقد بيّنا في ما تقدم ان الجيش الزاحف من الشمال عليهِ ان يحسن القواعد التي ترتكز عليها مواصلاتهُ مع انحرا ومصوّع ويبقي فيها حاميات كبيرة . وان تقدّمهُ لذلك لابدّ ان يكون بطيئاً في البدء . وان التقدم من الجنوب قد يكون اسهل منهُ في الشمال ولكن الجيش الزاحف مع ذلك يحتاج الى تأمين طرق مواصلاته بعد انشائها . وانهُ بعد احتلال الولايات المحيطة بقلب النجد الحبشي يكون الايطاليون في بدء مغامرتهم الحقيقية في الحبشة لا في نهايتها .فاخضاع الحبشة يقتضي اخضاع الاحرين والدوعيين وهم شعوب وقبائل شديدة الشكيمة يجري حب الاستقلال في دمائهم ويضيفون الى منعة معاقلهم الجبلية الوعرة ، كرهاً للاجانب يغذيه شبانهم المتعلمون في اوربا واميركا . واذن فالراجح ان لا يكفي فصل واحد لادراك الاغراض النهائية التي وضعها موسوليني نصب عينيهِ وعندئذٍ يتحوّل النزاع الى حرب عصابات قد تطول سنين . فاخضاع ليبيا ؛ وهي اقرب الى ايطاليا، وليس فيها الاّ ٢٠٠ الف مسلم للقيام بحرب العصابات، اقتضى من ايطاليا عشرين سنة . وفي هذه الحالة تضطرّ الحكومة الايطالية ان تنفق بدرات من الاموال ومهج الوف والوف من ابنائها

خريطة لبلاد الحبشة

والبلدان المحيطة بها وبعض مواقعها الحربية